جوانب من البحث في الجغرافيا السلوكية: حالة الإعداد التقليدي للأراضي الزراعية في الذروة الكلسية وهوامشها (جبال الريف شمال غرب المغرب)

Some aspects of research in Behavioural geography : the case of traditional planning of agricultural space in the "dorsale calcaire" and its environs (the Rif mountains of north-eastern Morocco)

د/ مصطفى أحمامو
جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب
stoph249@gmail.com

الملخص:

تهتم الجغرافية السلوكية بتحليل وتفسير سلوكات الأفراد الفردية والجماعية داخل حيز مجالي معين، وذلك بالتركيز على العلاقات التفاعلية بين الإنسان وبيئته. في هذا الإطار، تحاول هذه الورقة البحثية أن نطبق المنهج السلوكي في معالجة الروابط بين الإنسان وبيئته في مجال جبلي، يتعلق الأمر بالذروة الكلسية وهوامشها (مناطق الاتصال) جنوب تطوان (جبال الريف شمال غرب المغرب). وقد اعتمدنا في إخراج هذا العمل ثلاث مقاربات:بدءً بجمع الدراسات العلمية ذات الصلة بالموضوع؛ ثم التحقيقات الميدانية (استمارات ومقابلات وملاحظات ميدانية) وأخيرا العمل الخرائطي باستخدام برنامج نظم المعلومات الجغرافية (ArcGIS 10.2). هذه المقاربات مكنتنا من الإلمام بالموضوع، حيث اتضح أن السلوكات المجالية للفلاحين عرفت تحولات كبيرة منذ أن تسربت زراعة القنب الهندي " الكيف" إلى المجال المدروس. إن هذا الأخير رغم كونه مجالاً جبلياً بسفوح شديدة الانحدار ذات تركات ترابية غير متطورة وهزيلة، من المفروض أن تستغل بشكل عقلاني وفق شروط تضمن تجديد الموارد الطبيعية، كما كان الأمر سائدا منذ القدم غدى اليوم يشهد ضغطا لا يطاق.

الكلمات المفتاحية: الذروة الكلسية، مناطق الاتصال، الجغرافية السلوكية، الإعداد الزراعي، نظم المعلومات الجغرافية

Abstract:

Behavioral geography is a branch that examines the individuals, through their relationship with the land. In this regard, this article will try to use a behavioral approach in order to evaluate the interaction between humanity and the environment in “Dorsale Calcaire” (the Rif mountains of north-eastern Morocco). This approach has allowed us a much better idea about the spatial behavior of farmers, which has experienced a remarkable change after the expansion and extension of cannabis cultivation in the region. This latter is characterised by the prevalence of lithosols which must be exploited in a rational way to ensure the renewal of natural resources, as was the case before. Today it is currently under strong pressure

Keywords: “Dorsale calcaire” , Contact zone, Behavioral geography, Agricultural Planning, GIS.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة:

استرعى انتباه الجغرافيين، دوما، "سلوكات الأفراد والجماعات والمؤسسات، واستحضروا ذلك ضمن أعمالهم الخرائطية وصنافتهم ووصفهم لهذه السلوكات الممارسة فوق المجال الجغرافي [...] وبينما كانت دائرة تعرضهم لهذه الجوانب مقتصرة على الوصف (ماذا كان هناك؟) غدوا في بحث متواصل عن تفسير الظواهر (لماذا أو كيف وجدت الأشياء هناك؟)، فعادة ما يبحثون من أجل ذلك بين الروابط المادية للبنيات المجالية التي تتوزع فوقها الظواهر وتنسج بين ثناياها سلوكات الإنسان المجالية"[1].

من هنا، سيتأسس فرع جغرافي، يتعلق الأمر بالجغرافيا السلوكية "كتخصص علمي سنة 1874، وهي مقاربة لمعرفة السلوك المجالي للإنسان [...]... من مواضيعها سيرورة الإدراك من خلال التفكير/المنطق المجالي واتخاذ القرار، والارتباط بالمكان (Attachment of Place)، والمواقف تجاه المجال الجغرافي، والقرارات المحلية وقرارات تخصيص وتوزيع الموارد[2].

مع العلم أن هذا الفرع من الجغرافيا، شهد، على غرار بقية الفروع، تحولات كبيرة على مستوى المناهج والمقاربات والأدوات، وصرنا نفرق بين الجغرافيا السلوكية الكلاسيكية ونظيرتها الجديدة [...] وتنطلق الجغرافيا السلوكية الحديثة من المكان المحسوس والمكان المعيش للأفراد كي تفهم ما يفعله الإنسان بالمحيط الذي يتحرك فيه. [...] ويستعمل السلوكيون المحدثون أدوات بحث مختلفة؛ فالبنسبة للإدراك البيئي، نجد شبكات التحليل والتشخيص الدلالي والاستمارة[3].

لقد شكل اتخاذ القرار المجالي موضوعا خصبا في إطار الجغرافية السلوكية؛ فعلى سبيل المثال، ضمن المجالات الريفية "يتخذ الفلاح قراراته بناء على تفاعل العوامل الإيكولوجية بالنسق الثقافي من أجل تحقيق غايات محددة، جوهرها البحث عن الانتظام والتكيف"[4].يتخذ هذا التكيف في المناطق الجبلية عدة مظاهر، من أبرزها تقنية المدرجات الزراعية، وهي صنف من الإعداد التقليدي للأراضي؛ أي كل الممارسات التي ساهم فيها الإنسان

---

1)GOLLEDGE R.G. & STIMSON R.J., **Spatial Behavior**: **A Geographic Perspective** , (New York: Guilford Press, 1997), PP. 4-5. [En ligne],: http://books.google.co.ma (03/07/2014).

2) TOM J., "Introduction to Behavioural Geography", 2014. [Online], http://classes.uleth.ca/200703/geog1010a/Johnston%20%20Behavioural%20Geography%20I.ppt.

3) بلفقيه محمد، **الجغرافيا القول عنها والقول فيها. المقومات الإبستيمولوجية**، (المغرب: دار النشر المعرفة، 2002)،ص.ص. 769-772.

4) الأسعد محمد،" أشكال القرارات الزراعية لدى الفلاحين ودلالات اختياراتهم في البيئات شبه الجافة بالمغرب"، ورد في: **مجلة جغرافية المغرب**، عدد 1-2 **السلسلة الجديدة**، الرباط، المغرب، 2006، ص.6.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المحلي بوسائله التقليدية "المتواضعة" دون تدخل جهات خارجية؛ وبعبارة أخرى يقابل هذا الصنف من الإعداد التقليدي الإعداد الرسمي الذي تقوم به الدولة والمصالح التابعة لها.

ومن حيث الجذور التاريخية لهذه التقنية نشير إلى أنها "انتشرت في أسيا منذ 2000 قبل الميلاد، وفي المنطقة المتوسطية، لما ارتفعت الكثافات السكانية [...] ظهرت أولا هذه التقنيات بجزيرة كريت (1000 سنة بعد الميلاد). وجدير بالذكر أن عمليات التهيئة هذه تتطلب طاقات بشرية كبيرة (من 300 إلى 1500 فرد/يوم/هكتار)"[1].

وقد استقطبت هذه المدرجات في "منطقة البحر الأبيض المتوسط زراعة الحبوب والكروم وأشجار اللوز والزيتون، وساهمت في توفير الغذاء لعدد كبير من سكان الجبال؛ فهي الآن تشكل مشاهد استثنائية، تعكس القدرة المعرفية للسكان الجبليين على أقلمة الظروف الطبيعية الصعبة مع حاجاتهم المختلفة [...]، وقد حافظت منذ قرون عدة على التوازن بين الاقتصاد والمجتمع والبيئة [...]؛ فهي مشاهد جغرافية وموارد في الآن نفسه تختزل إمكانات مهمة لتنمية مستدامة في العديد من المناطق الجبلية، نتيجة قيمتها الاقتصادية والإيكولوجية. لذلك، ينبغي جعل إعادة إدماج هذه المدرجات الزراعية وإحيائها، في إطار الاقتصاد الجبلي، هدفا ذا أولوية ضمن السياسات العمومية"[2].

أثبتت العديد من الدراسات "أن مختلف أنواع المدرجات، وفوق تربات وظروف مناخية ونباتية مختلفة، أنها عمليات تهيئة ناجحة للمحافظة على التربة من مختلف أشكال التعرية المائية"[3]. "إن بناء المدرجات وتدعيمها بحواجز صخرية متراصة، عمليات لها فوائد عديدة سواء زراعيا أم بيئيا، من تجليات ذلك التقليل من التخديد، من خلال التخفيف من حدة تدفق مياه الأمطار [...] ومساهمتها في ترشح المياه نحو باطن المصطبات بدل سيلها

1) ROOSE É., & al, **Gestion durable des eaux et des sols au Maroc : Valorisation des techniques traditionnelles méditerranéennes**, Éditions Institut de Recherche pour le Développement (IRD), (France: Éditions Institut de Recherche pour le Développement (IRD),2010), P.36.

2) LASANTA T., "Agricultural terraces in the spanish mountains : an abandoned landscape and a potential resource ", **Boletín de la Asociación de Geógrafos Españoles** ,N.º 63, 2013, P .488.

3) MARCIN K. W., "Terracing as a Measure of Soil Erosion Control and Its Effect on Improvement of Infiltration in Eroded Environment" , In Danilo G. (ed.), «Soil Erosion Issues in Agriculture», ISBN: 978-953-307-435-1, In Tech, 2011, P 329.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سطحيا...إلخ"[1]. "كما أن ترصيف الصخور بدون مواد لاحمة يسمح بتسرب المياه [...] وتعمل هذه الأحجار الجافة على استقطاب الحرارة، ما يوفر فوائد مهمة للزراعات بين الليل والنهار، بل وطيلة السنة لقدرة هذه الصخور على اختزان حرارة الشمس]...[من جهة أخرى تساهم المدرجات في التنوع البيولوجي، حيث تسمح جدران الصخور الجافة من خلق تجاويف صغيرة تشكل ملجأ لحياة الحيوانات البرية والنباتات المحلية"[2].

إن هدف هذا النوع من إعداد الأراضي، كما هو معلوم، هو حماية التربة من التدهور، ذلك أن مياه السقي أو السيل الغشائي والمركز تقل حدته فوق السطوح المنبسطة، كما أن الحواجز الصخرية تلعب دورا مهما في تخفيض قوة الجريان والتخوير الذي يحصل بين المصطبات؛ فهو أسلوب تهيئة ناجع وفعال، يروم الحفاظ على الرأسمال الترابي من التلف كما وكيفا. وقد أكدت العديد من الدراسات، التي اهتمت بالجبال المغربية، أهمية تدخلات الإنسان للسيطرة على التعرية المائية من خلال تقنية المدرجات، فقد أشارت بعض الدراسات "أن الإنسان بمنطقة أكوندیس في الأطلس الكبير ترك بصمات واضحة على مستوى إبراز معارفه الإيكولوجية المحلية ومسألة إعداد الأراضي الزراعية"[3].

وارتباطا بالموضوع، ونظرا لكون الأعمال العلمية الجغرافية التي اهتمت بالمجال المدروس تبقى دراسات في معظمها عامة ذات مقياس جغرافي صغير، لم تلامس الممارسات المجالية للأفراد وفق المنهج السلوكي[4] سنحاول انطلاقا من هذا المقال أن نلاحق –علميا– بعض جوانب من هذا الفرع الجغرافي، من خلال إبراز بعض مظاهر التأثيرات التي تشكل السلوك المجالي لساكن الذروة الكلسية وهوامشها، ودورها في إدراكه لعراقيل وإمكانات البيئة المحلية وتسخير معارفه في أقلمة كل ذلك مع متطلباته وحاجاته المختلفة وانعكاساتها على مستوى التخطيط

---

1) LUUK D., & FREDDY R., "A review of the effect of terracing on erosion" , In **Briefing Papers** Of the second SCAPE workshop in Cinque Terre (IT), 13-15 April 2004, P 97.

2) REMI D., "**L'enjeu des terrasses de culture dans les Préalpes d'Azur**" , (Mémoire de Fin d'études, ISARA-Lyon, France, 2011), Pp .18-20.

3) BERNADETTE M., « The Future of Agriculture in the High Atlas Mountains of Morocco: The Need to Integrate Traditional Ecological Knowledge », In Mann S. (ed.), « The Future of Mountain Agriculture», Springer Geography, DOI: 10.1007/978-3-642-33584-6_5, Springer-Verlag Berlin Heidelberg, 2013, P.58.

4) نشير، بإيجاز، من باب نقد الدراسات الجغرافية السابقة، أن مسألة العوائق الإبستمولوجية لا زالت ترخي بضلالها على المادة عامة ومعها فرع الجغرافيا السلوكية، سواء تعلق الأمر من حيث المنهج أم الموضوع أم المفاهيم الموظفة؛ فبالنسبة للجغرافيا السلوكية الحديثة التي تعالج عمليات الإدراك، يصعب معها، في حقيقة الأمر، رصد، بشكل مضبوط، التمثلات المجالية للأفراد، وبالتالي تعميم النتائج. هذا القصور الابستمولوجي لا ندعي تجاوزه، بل تبقى هذه الدراسة مجرد محاولة لملامسة الحقيقة الموضوعية للظاهرة الجغرافية المدروسة (الإعداد التقليدي للأراضي الزراعية كسلوك مجالي قد يكون إيجابيا عندما يُأخذ بعين الاعتبار مسألة استدامة الموارد، وقد يكون سلبيا حينما يُتطلع من خلاله –إعداد الأراضي– تحقيق الرفاهية على حساب الاستدامة البيئية).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والإعداد المجالي للموارد المتاحة، مع استحضار التباينات المجالية لهذه السلوكات الفردية والجماعية بين أجزاء المجال المدروس (الخريطة رقم 1)[1]، والتعرف على العوامل المؤثرة في ذلك.

هذه السلوكات المجالية شهدت تحولات كبيرة، فرضت نفسها كموضوع/إشكال للدراسة؛ فرغم أن المجال المدروس هو مجال جبلي ذو انحدارات شديدة وتربات فقيرة، فإنه يستغل بكثافة لا تطاق زراعيا، وفي ذلك تهديد كبير للبيئة المحلية. فما أهم مظاهر التحول الذي مس السلوك المجالي لساكنة هذه المنطقة المدروسة؟ وما العوامل المتحكمة في ذلك؟ ولكي نحدد أكثر اتجاه دراستنا، ونعبر عن القضايا التي تنتظر التحقق، انطلقنا من فرض أساسي قوامه: أن سلوكات الإنسان المجالية وعت سابقا استدامة الموارد الطبيعية، وغدت حاليا بفعل جشع الإغراءات المادية لا تمت بصلة إلى التنمية المستدامة.

لقد عالجنا هذا الموضوع وفق منهج علمي، أمكننا من الإلمام بمجموعة من الجوانب ذات الصلة بالإشكالية المدروسة، وقد اعتمدنا في إخراجه على مجموعة من التقنيات والأدوات التي تميز البحث الجغرافي، يمكن تلخيصها في ثلاث مقاربات أساسية:

مقاربة جمع الدراسات العلمية: حيث قمنا بالاطلاع على مجموعة من الدراسات: المقالات والكتب والتقارير العلمية التي اهتمت بالجغرافية السلوكية والتهيئة المجالية في المناطق الجبلية؛

مقاربة ميدانية: من خلال القيام بزيارات عديدة للميدان، هدفنا من وراء ذلك مشاهدة الوقائع ثم تحليلها وتصنيف عناصرها وترتيبها. وتعبئة الاستمارات في ثمانية مداشر (الخريطة رقم 1)، كان من بين الأسئلة الموجهة إلى أرباب الأسر ما يصب في السلوكات المجالية، من قبيل أساليب التهيئة المعتمدة وتدبير الاستغلاليات الزراعية والتعامل مع المجال الغابوي... إلخ، وقد همت الاستمارات 642 أسرة؛

مقاربة خرائطية: تعتمد على توطين أهم أساليب التهيئة المجالية (مدرجات، وأساليب أخرى) باستخدام برنامج نظم المعلومات الجغرافية (ArcGIS 10.2)، واعتمادا على خرائط بينغ (hybrid bing map)؛ إضافة إلى اعتمادنا على الملاحظات الميدانية.

[1] في إشارة موجزة عن المجال المدروس، يمتد على مساحة تحوم حول 1300 كلم^2 ، ويعتبر مجالاً انتقالياً على جميع الأصعدة، جيولوجيا ومناخيا وبشريا، يتوسط وسط شبه الجزيرة الطنجية والساحل المتوسطي، كما ويعتبر في حد ذاته مجالاً يحوي مجموعة من المناطق الانتقالية الصغرى، ويمكن الجزم بأنه كيان يحدد بجلاء جغرافية شبه الجزيرة الطنجية، حيث يعتبر مصدر الحياة؛ فالذروة الكلسية بصفة عامة، والشريط الممتد بين تطوان وأسيفان بصفة خاصة، بموقعها هذا، تشكل عوارض طبيعية تؤثر في مناخ المنطقة وتضاريسها وهيكلها الجغرافي. من تجليات ذلك، يعود لها الفضل الكبير في ازدهار وتنوع الموارد المائية، حيث تغذي وتزود المدن والمراكز والمداشر بالماء المستعمل في السقي والصالح للشرب وإرواء المواشي ولتوليد الطاقة الكهرومائية، وهي فضاء لصون التنوع البيولوجي والغطاء النباتي، كما تعتبر رأسمالاً ثقافياً غنياً وخزاناً بشرياً (198.263 نسمة سنة 2014) ساعد على تأكيد الخصوصيات الأصيلة لساكنة شمال المغرب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخريطة رقم1: التوزيع المجالي للأراضي الزراعية المهيأة بالمجال المدروس

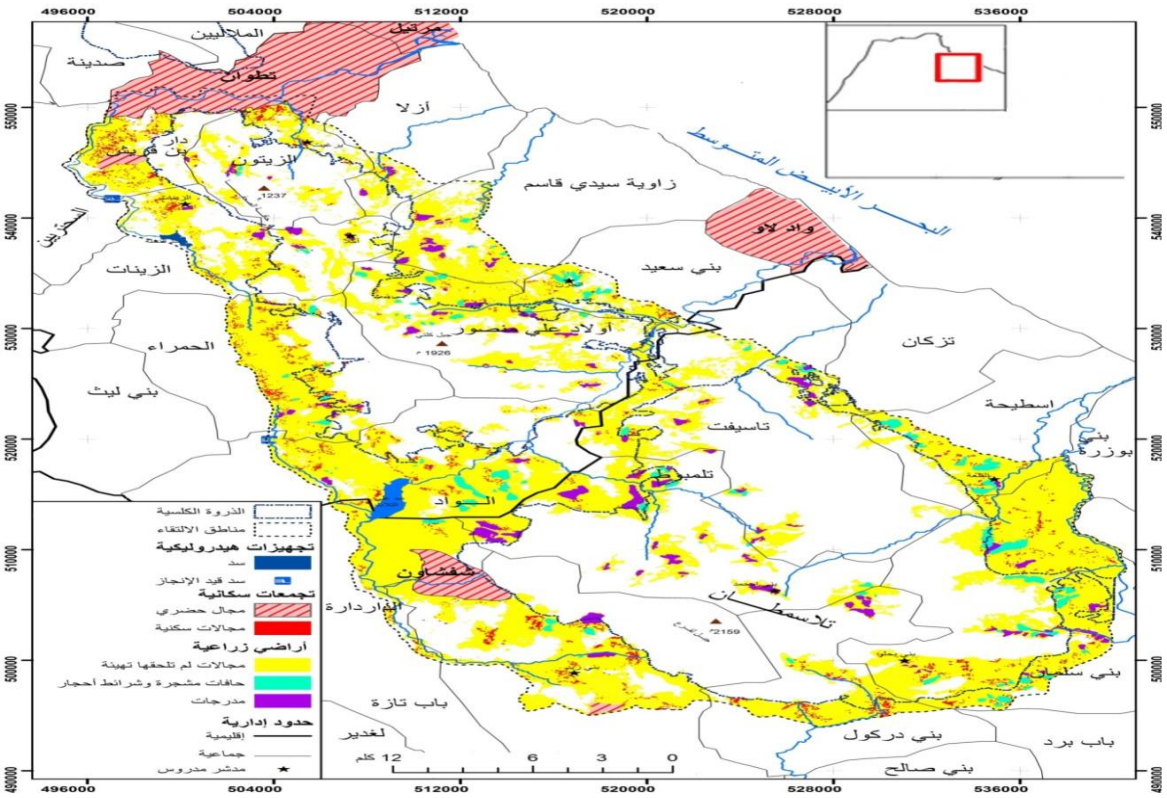

المصدر: استغلال شخصي لخرائط بينغ (hybrid bing map) سلسلة أبريل 2014؛ معاينة ميدانية، 2013 و2014.

1-تراجع ملموس في تنويع آليات إعداد الأراضي الزراعية

أدرك الفلاح، في مجال دراستنا، وعلى غرار بقية المناطق الجبلية المغربية، عراقيل البيئة الطبيعية، وحاول أن يتكيف معها قدر المستطاع وفق الإمكانات المتوفرة، من تجليات ذلك شكلت المحافظة على التربة من التدهور إحدى انشغالاته، نظرا لحساسيتها لمختلف أشكال التعرية، حيث اتبع أساليب مختلفة من قبيل تقنية المدرجات واستراحة الأرض والتناوب الزراعي والتشجير وشق قنوات تصريف المياه...إلخ[1]، وذلك من أجل الحفاظ على خصوبة التربة. من جهة أخرى، ونظرا لعدم نجاعة هذه الأساليب، من منظور الفلاح، لا سيما على مستوى

[1] أحمامو مصطفى، "قضايا التدبير والإعداد في المناطق الجبلية: حالة الذروة الكلسية وهوامشها جنوب واد مرتيل (إقليما تطوان وشفشاون)"، (أطروحة الدكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب)، ص.353.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تلبيات الحاجيات المتزايدة، اضطر في هذه المناطق إلى توسيع مساحة الاستغلاليات الزراعية على حساب الغابات. وسنحاول فيما تتبع مسار هذه السلوكات المجالية وصفا وتفسيرا.

1-1 المدرجات: تقنيات لها فوائد زراعية وبيئية لم تعد حاضرة بكثافة ضمن اختيارات الفلاح

سخر فلاح المنطقة المدروسة، منذ القدم، معارفه للتغلب على العوائق الطبيعية، المتمثلة أساسا في شدة التضرس (حدة الانحدارات) وقساوة الظروف المناخية (العنف المطري والبرودة الشديدة شتاءً)، كهدف يبتغي من خلاله الحفاظ على الرأس المال الترابي، وتكشف الخريطة رقم 1 عن ممارسات إعداد الأراضي الزراعية، حيث بلغت المساحة التي شهدتها التهيئة حوالي 3154 هكتارا.

إن مقارنة مساحة هذه الرساتيق المستصلحة بمجموع الأراضي الزراعية في المجال المدروس (حوالي 56.664هكتاراً)، تعطينا حصيلة جد متواضعة، إذ لا تتعدى نسبة الاستصلاح 5,5%، مع اختلاف يسجل بين الذروة الكلسية ومناطق الاتصال، حيث في الأولى 7,20% وفي الثانية 4,94%. ومن حيث نوع الاستصلاح تشكل عمليات التهيئة من صنف المدرجات 52,63% (الصورة رقم 1) والعمليات الأخرى خاصة تنقية المشارات من الأحجار (العدن)، وتصفيف هذه الأخيرة على شكل شرائط في اتجاه موازي لخطوط تساوي الارتفاع 47,37% (الصورة رقم 2).

صورة رقم 1: المدرجات الزراعية في بني امحمد (جماعة تلمبوط)

تعتبر المدرجات الزراعية رموزا وتحفا منقوشة تعكس المعارف الجغرفية/البيئية للفلاح الجبلي في مدشر بني

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

امحمد. لقد استفاد فلاحو هذه المنطقة من الإمكان الصخري، الذي توفره الركامات الكلسية، في بناء الحواف التي تفصل بين مصطبة وأخرى، وترصيف المسالك. ولاشك أن لهذه العمليات فوائد زراعية وبيئية في غاية الأهمية، تتمثل في تحقيق مردودية زراعية مقبولة وتحمي التربة من التلف، سواء من العنف المطري أم عمليات السقي بالغمر السائدة في المنطقة. (الصورة بعدسة احمامو مصطفى يوم 21 أكتوبر 2013).

صورة رقم 2:تنقية الأراضي من الأحجار قرب مدشر أزيلان (جماعة تلمبوط)

نظرا لضيق الأراضي الزراعية وتفتت مشاراتها المتزايد، فإن التغلب على هذا العائق يكاد ينحصر في الاجتثاث الغابوي، ولأن مرفولوجية السطح تتميز ببروز الصخر الأم، وأن طبوغرافية المنطقة معظمها ذات انحدارات شديدة، فإن السبيل لتجاوز هذه الإكراهات يكون عن طريق تقنية العدن، ثم تصفيف ما جُمع من ركامات صخرية في اتجاه موازي لخطوط تساوي الارتفاع، لعلها تحول دون انزلاق ما جادت به هذه السفوح من تركات ترابية هزيلة–غير متطورة– نحو السافلة. (الصورة بعدسة احمامو مصطفى يوم 21 أكتوبر 2013).

من باب توزيع هذه الأراضي المستصلحة، يظهر من الخريطة رقم 1 أن أهمية مناطق الاتصال في هذا الصدد، من حيث المساحة، أكبر من نظيرتها وسط الذروة الكلسية، حيث مثلت الأولى ثلثي مجموع هذه الأراضي (64,28%). وهذا طبيعي بالنظر إلى المساحات الشاسعة المخصصة للزراعة في هذه المناطق مقابل ضيقها وسط الكتلة الجيولوجية. وبمقابلة نوع الاستصلاح بالوسط الطبيعي، يلاحظ أن أهمية المدرجات الزراعية وسط الكتلة الكلسية خيار للتهيئة مهيمن على الخيارات الأخرى (62,60% من مجموع عمليات التهيئة)؛ بينما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في مناطق الاتصال، هناك تقارب بين بناء المدرجات (47%) وبين العمليات الأخرى التي تبقى أبرزها تقنية العدن (53%).

من خلال العمل الميداني، يظهر أن سلوكات الإنسان المجالية، في المنطقة المتحدث عنها، تغيرت بشكل كبير في العقود الثلاثة الأخيرة، من تجليات ذلك بداية التراجع، إن لم نقل، اختفاء تقنيات المدرجات، حيث أجاب كل أرباب الأسر الذين تتعرض أراضيهم للسيول السطحية والخدوش والتخديد عن اعتمادهم، في محاربة ذلك، على شق سواقي تصريف المياه، بنسب فاقت ثلاثة أرباع التدخلات في معظم الحالات، في حين تبقى المعالجة البيولوجية وبناء المدرجات تقنيات في طريق الاختفاء.

إن تفسير هذه التحولات يرتبط بمجوعة من التأثيرات والعوامل التي غيرت تشكل السلوك المجالي لفلاحي المجال المدروس، وقد تزامنت هذه التأثيرات أساسا مع الفترات الانتقالية من نمط زراعي إلى آخر؛ فبينما وعى الفلاح الجبلي قضية الاستدامة وبذل كل طاقته، إبان سيادة الزراعات المعيشية، من أجل حماية مشاراته من التدهور، أصبح همه في خضم الزراعات التسويقية (القنب الهندي "الكيف") تحقيق الربح السريع مقابل تجاهله، عن وعي أو غير وعي، الآثار البيئة السلبية لهذه السلوكات المجالية. ومن ثم يمكن القول، إن إغراءات "الكيف" المادية عملت، بطريقة أو بأخرى، على تقليص دائرة المعارف الجغرافية-البيئية للساكن المحلي الذي ينتهج حاليا أساليب زراعة لا تمت بصلة للتنمية المستدامة.

1-2 من التناوب الزراعي وإراحة الأرض إلى الاجتثاث المهول والاستعمال المكثف للأسمدة الكيماوية

نظرا لمحدودية الموارد المتاحة، نهج السكان في مجال دراستنا أساليب رامت التكيف مع هذه المعطيات، من خلال المداورة الزراعية وإراحة الأرض، وهي توجهات رشيدة ضمنت الاستمرارية لعقود طويلة من الزمن. إلا أن الاندماج المتسارع لمجال الدراسة ضمن تطورات وتحولات المنطقة إقليميا وجهويا، عجل بإتباع الفلاح الجبلي أساليب جديدة منهكة للبيئية الطبيعية، من قبيل الاجتثاث الغابوي المفرط والاستعمال الكثيف للأسمدة الكيماوية.

اتضح لنا، من خلال العمل الميداني، أن التناوب الزراعي يقل كلما اتجهنا من الشمال نحو الجنوب، حيث ينهج هذا الأسلوب حوالي ثلثي فلاحي يرغيت وأكثر من نصف فلاحي انجرن ويغيب تماما في مدشر بني امحمد. وبمقابلة هذه النسب مع مجال انتشار زراعة "الكيف" يظهر دور هذه الأخيرة في احتواء بقية المحاصيل الزراعية،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حيث تشكل الحدود الفاصلة بين قبيلتي بني حزمر وبني سعيد بداية التخلي التدريجي لنمط المداورة الزراعية التي اتخذت عدة مظاهر، من قبيل التعاقب بين القطاني والحبوب والخضروات في الزينات ونواحيها والفصة والذرة والحبوب والخضروات في يرغيت.

إذا كانت هذه المعطيات تنم عن الواقع الآني للأنظمة الزراعية السائدة، فإن ماضي المنطقة يزخر بسلوكات زراعية تعكس معارف الإنسان في تعامله مع الإكراهات المختلفة التي تواجه الاقتصاد الزراعي. فكما هو معلوم، تتميز الأراضي الفلاحية في المنطقة المتحدث عنها بمحدوديتها كميا وكيفيا (جودة التربة ومساحة الأراضي الصالحة للزراعة)، حيث شدة التضرس الذي يتمخض عنه، أيضا، اختلافات على مستوى طبيعة الأراضي الزراعية، بين السفوح الشميسة ونظيرتها الظليلة (أرض سخونة وأرض باردة). كل هذه الاختلافات بالإضافة إلى التذبذبات الحاصلة على مستوى التساقطات المطرية السنوية والفصلية والإكراهات الأخرى المختلفة، حاول فلاح المنطقة التعامل معها وفق نمط زراعي قوامه التناوب سواء تعلق الأمر زمنيا بين المحاصيل السنوية والفصلية، ومجاليا بين الأراضي "السخونة" والأراضي "الباردة" ونوعيا بين القطاني والحبوب والخضروات، دون إغفال أهمية إراحة الأرض.

لقد كانت معظم الأراضي "السخونة" مخصصة للزراعات البكرية التي يشرع فيها خلال بداية فصل الشتاء؛ ومع بداية فصل الربيع، تبدأ الزراعات المازوزية في الأراضي الباردة، مع التأكيد أن الأمر يختلف من سنة إلى أخرى حسب الظروف المناخية السائدة. وعلى المستوى النوعي، جدير بالذكر أهمية بعض المزروعات في تخصيب الأراضي، من قبيل القطاني (الحمص والفول والعدس...)[1].

فيما يخص إراحة الأرض، كأسلوب وقائي هدفه تقليل الضغط الممارس عليها، تتحكم فيه مجموعة من العوامل؛ فقد أشار الميموني عبد السلام في دراسته لغمارة الغربية إلى سبعة أسباب رئيسية: صلابة الأرض وإخصاب التربة، وتأخر التساقطات، وضيق الوقت، ونقص قوة العمل، وقلة الأسمدة، والرعي، بالإضافة إلى أسباب أخرى مختلفة. وقد أثار ثلاث ملاحظات: الأولى تتمثل في تعدد أسباب إراحة الأرض، والثانية في كون نسب الإراحة تختلف حسب السنوات، والثالثة أن الأسباب تتباين حسب المداشر[2].

[1] في هذا الصدد نشير أن فلاح المنطقة، على غرار بعض المناطق الأخرى، يستعمل مصطلح "تكسير الأرض" للدلالة على زرعها بالقطاني كأسلوب استباقي يروم من خلاله تخصيب التربة للسنة الزراعية المقبلة.

[2] الميموني عبد السلام، "إعداد الموارد الجبلية بمنطقة غمارة الغربية (الريف الغربي)"، (رسالة دبلوم الدراسات العليا، شعبة الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس-أگدال، الرباط، المغرب، 1999)، ص. ص. 216-217.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم تعد، حاليا، مسألة إراحة الأرض واردة إلا عندما يتعلق الأمر بحالات استثنائية كالمنازعات بين أصحاب الحقوق أو هجرة بعض الأسر التي تصر على عدم تفويت أراضيها للغير أو الأراضي التي توسعت على حساب الغابات وتم إيقاف استغلالها من طرف الدولة. ويمكن تفسير هذا التوجه بأهمية ما تدره زراعة "الكيف" من موارد مالية لا بأس بها، التي ساهمت بدورها في تطوير وسائل الإنتاج الحديثة المتمثلة في استعمال مكثف للأسمدة الكيميائية (27,73% من الاستغلاليات تستعمل فقط الأسمدة الكيماوية و69,15% يمزجون بين الأسمدة الطبيعية والكيميائية)، بالإضافة إلى ضيق المجالات الزراعية التي تزداد تجزؤا بسبب الإرث. هذه المغريات ساهمت في تنامي سلوكات سلبية إزاء الغابات التي تراجعت بما يزيد عن الثلث، خلال العقود الأربعة الأخيرة، فبينما كانت تشكل 60% من مجموع المجال المدروس، أصبحت حاليا لا تتجاوز 39,6%؛ هذا على مستوى الكم، أما على مستوى الكيف، فأزيد من خُمس التشكيلات الغابوية عبارة عن ماطورال، وما يزيد عن النصف، تتميز بكثافة متواضعة. وإذا كان هذا جانبا من التحولات المجالية التي تسببت فيه زراعة "الكيف" بشكل كبير، فإنها أيضا خلخلت معها التوازنات الاجتماعية، لا سيما على مستوى التدبير المشترك للمشارات الزراعية بين الفلاحين.

2- مراحل الحرث: من التناسق الزمكاني في اتخاذ القرارات الفلاحية الجماعية إلى تفشي الفردانية

جدير بالذكر، قبل الخوض في سيناريوهات عمليات الحرث، أن نشير كون الأخيرة كانت تتم بشكل جماعي (العمارة)؛ أي حسب الرساتيق؛ ذلك أن الاختلافات الزمنية للحرث ضمن حيز مجالي معين ينجم عنه إتلاف البذور داخل المشارات المزروعة نتيجة المرور المتكرر للإنسان والدواب، لذلك فعملية الحرث غالبا، ونظرا لغياب المسالك بين المشارات الزراعية، ما يطبعها التناسق المجالي والزمني. هكذا كان يشرع أولا في حرث المشارات القريبة من الدور السكنية (الدباني/الدماني)، ثم البعيدة منها (الخلاء/الغابة).

بالنسبة لعملية البذر، لا يُخاض فيها إلا بإجراء مسبق من خلال تأطير الفلاح لحيز مكاني يعرف بـ"المطيرة" على شكل مستطيل بعرض حوالي ثلاثة أمتار، وتتم هذه العملية وفق مسار مضبوط ومتناغم؛ وقد تركت هذه السلوكات الزراعية أمثالا شعبية تنم عن مدى إتقانها[1]. أما عمليات الحرث، كما هو متعارف، تمر عبر مرحلتين، تسمى الأولى "القْلِيبْ" والثانية "الرَّدْ". لكن، احترام المرحلتين رهين بطبيعة المشارة من حيث وضعيتها السابقة ونوع تشكيلاتها الترابية والحشائش التي تنمو فيها، وكذلك من حيث نوع المزروعات المستهدفة. لذلك، عندما يهم الأمر أراضي بائرة أو ذات تربات صلصالية داكنة اللون لا بد من مباشرة عملية "القليب" من أجل تفتيت وقضم

[1] *كاينالفلاح والڤْليلح وعَشّاي الطيور: بمعنى هناك فلاح يتقن عمله وآخر دون ذلك وثالث غير متمرس لا يتقن بذر الحبوب. أحرث ياالحارث وكْلس قارن المراجَع كل تاجر وتْويجر ليديك رَاجَع: بمعني يجب أن تكون الحرث متقنة ومن ثم فكل تاجر أو تاجر صغير سيشترى منه منتوجه لاحقا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كاف لنسيج هذه التربات. في حين، تخطي المرحلة الأولى ومباشرة الزرع سلوك نفعي بالدرجة الأولى، خاصة لما تكون المشارة قد شغلت في السنة الفارطة مزروعات مخصبة (الكُسُور)، من قبيل الحمص والفول و"الكيف"...

من جهة أخرى، لما يتعلق الأمر بمشارات ذات انحدار كبير، يتبع فلاح المنطقة منهجية الحرث في اتجاه موازي لخطوط تساوي الارتفاع، على أن مرحلة حرث "الرد"، لا بد من أن تعاكس قليلا خط مرحلة حرث "القليب" كإجراء الهدف منه تفتيت وتكسير كاف لأنسجة التربة. ولما يهم الأمر الأراضي المنبسطة، أو في المدرجات الزراعية، فإن خطوط "الرد" تكون معاكسة تماما لخطوط "القليب"، أي بشكل متعامد.

خاتمة:

على سبيل الختم لهذا الموضوع، يمكن الجزم بحدوث تغيرات كبيرة في السلوكات المجالية لساكن الذروة الكلسية وهوامشها، فبعدما كان بناء المدرجات وتنويع المحاصيل الزراعية معارف مجالية مستدامة يروم من خلالها الفلاح الجبلي تجنيب أراضيه مختلف أنواع الأخطار وتلبية حاجياته المختلفة، جنح منذ حوالي ثلاثة عقود نحو خيارات أكثر ضررا بالبيئة المحلية، من تجليات ذلك الاجتثاث الغابوي والاستعمال المكثف للأسمدة الكيماوية؛ وقد رافق هذه التطورات بروز سلوكات زراعية جديدة، تمثلت بالأساس في الانفرادية والقطيعة مع بعض أوجه التدبير الجماعي المشترك للموارد (تَوِيزَة) (فقط 18% من الأسر التي لا زالت متمسكة بهذا العُرف). كل ذلك انعكس على المشهد الجغرافي بصفة عامة. من هذا المنطلق، أدركت الدولة، في خضم تأطيرها المجالي وسياسات إعدادها الترابي، مخاطر هذه التحولات، حيث تلقفت مجموعة من البرامج الإنمائية، يبقى أهمها مشروع التنمية الاقتصادية للريف الغربي (Développement Economique Rural du Rif Occidental) المعروف بالديرو (DERRO)، خلال ستينيات القرن الماضي، ثم مشروع التنمية القروية المندمجة وتدبير الموارد الطبيعية بالشمال المعروف بـ (MEDA DRIGRN) (Développement Rural Intégré et Gestion des Ressources Naturelles) ابتداء من سنة 2000، ثم أخيراً مخطط المغرب الأخضر (2010) من خلال شقه المتعلق بالفلاحة التضامنية. إلا أنه بعد تقييمنا لهذه البرامج، تبين لنا أن مجملها لم يعط نتائج إيجابية، حيث لم تستطع الدولة توطين مشاريع فعالة من شأنها أن تسهم في تعويض ما تدره زراعة "الكيف" التي غدت لدى الساكنة خيارا يتشبثون به إلى درجة "القدسية". ووضعية مثل هذه يجب أن تواجه باتخاذ قرار سياسي شجاع يوازيه إقرار سياسة جبلية خاصة في الإعداد المجالي، في ضوئها ينبغي تثمين الموارد الترابية لا سيما إدماج القطاع الفلاحي –باعتباره نشاطا رئيسيا– في إطار ما يعرف بالسياحة الإيكولوجية. ولا شك أن هذه السياسة سوف تتدعم أكثر في حالة تكريس خطاب الجهوية المتقدمة تكريسا يتماشى والرهانات المسطرة والأهداف المعلنة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قائمة المراجع

قائمة المراجع باللغة العربية:

- احمامو مصطفى، "قضايا التدبير والإعداد في المناطق الجبلية: حالة الذروة الكلسية وهوامشها جنوب واد مرتيل (إقليما تطوان وشفشاون)"، (أطروحة الدكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب، 2015)، 603 صفحة.

- بلفقيه محمد، **الجغرافيا القول عنها والقول فيها. المقومات الإبستيمولوجية**، المغرب: دار النشر المعرفة، 2002، 898 صفحة.

- الأسعد محمد، "أشكال القرارات الزراعية لدى الفلاحين ودلالات اختياراتهم في البيئات شبه الجافة بالمغرب"، **مجلة جغرافية المغرب**، عدد 1-2، السلسلة الجديدة، الرباط، المغرب، 2006، 3-23 ص.

الميموني عبد السلام، "إعداد الموارد الجبلية بمنطقة غمارة الغربية (الريف الغربي)" ، (رسالة دبلوم الدراسات العليا، شعبة الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس-أكدال، الرباط، المغرب، 1999)، 307 صفحة.

قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

-BERNADETTE M., "The Future of Agriculture in the High Atlas Mountains of Morocco: The Need to Integrate Traditional Ecological Knowledge" , In Mann S. (ed.), « The Future of Mountain Agriculture», **Springer Geography**, DOI: 10.1007/978-3-642-33584-6_5, Springer-Verlag Berlin Heidelberg, 2013, 388-402 P.

-GOLLEDGE R.G. & STIMSON R.J., **Spatial Behavior**: **A Geographic Perspective** , New York: Guilford, Press, 1997. [En ligne],: http://books.google.co.ma (03/07/2014).

-LASANTA T. (2013) « Agricultural terraces in the spanish mountains: an abandoned landscape and a potential resource », In **Boletín de la Asociación de Geógrafos Españoles** N.º 63, 487-491 P.

-LUUK D., & FREDDY R. , "A review of the effect of terracing on erosion" , In **Briefing Papers** Of the second SCAPE workshop in Cinque Terre (IT), 13-15 April 2004,.97-108 P.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-MARCIN K. W., "Terracing as a Measure of Soil Erosion Control and Its Effect on Improvement of Infiltration in Eroded Environment" , In Danilo G. (ed.), «Soil Erosion Issues in Agriculture», ISBN: 978-953-307-435-1, In Tech, 2011, 316-334 P.

-ROOSE É., & al, **Gestion durable des eaux et des sols au Maroc**: **Valorisation des techniques traditionnelles méditerranéennes**, France: Éditions Institut de Recherche pour le Développement (IRD), 2010 , 343 P.

-REMI D., "**L'enjeu des terrasses de culture dans les Préalpes d'Azur**" , (Mémoire de Fin d'études, ISARA-Lyon, France, 2011), 101 P.

-TOM J., "Introduction to Behavioural Geography", 2014. [Online], http://classes.uleth.ca/200703/geog1010a/Johnston%20%20Behavioural%20Geography%20I.ppt.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com